تأملات فى الفن :

نبئيني غداً بما تسمعين

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

— لست أدرى لماذا تحب أن تسمع موريس شفالييه وهو يغنى بالإنجليزية ، مع أنه إذا غنى بالفرنسية كان أبدع

— من غير شك يكون أبدع ، ولكنى أسمعه يغنى بالإنجليزية لكى أضحك لا لكى أطرب ؛ فهو ينطق الإنجليزية بلكنة فرنسية فيزيد هذا الشذوذ تهريجه حلاوة وخفة

— وهل موريس شفالييه مهرج ؟

— وأى شيء هو غير هذا ؟ إنما هو مستساغ ومحبوب لأن تهريجه فى طبعه ، فلو لم يكن شفالييه مهرجاً محترفاً يربح من تهريجه المال الوفير ، لكان مهرجاً فى أى عمل يعمله وأينما كان وكيفما كان

— ليت عندنا مهرجين مثله

— وهل عندنا غيرهم . . . ولكن الذين عندنا لا يحترفون التهريج ويدعون الوقار ويصطنعون الجد والتعالى عن سفاسف الأمور

— مثل من ؟

— دعينا من هذا ، فأهلنا هنا فى مصر يوجههم الحق. عودى بنا إلى موريس شفالييه واذكرى له حسنة أخرى إلى ما ذكرنا له من حسنة التهريج المصريح

— خفة روحه

— إنها مع تهريجه وفى خلاله ، بل إنه منها وبها . ونحن نريد له حسنة أخرى لا صلة لها بالتهريج ...

— مثل ماذا ؟

— مثل لكنته هذه . أليست تدل على شيء طيب فى نفسه ؟ أليست تشهد بأن موريس شفالييه قوى الشخصية، ومن قوى شخصيته هذه القوة الفرنسية التى لم تخذلها رغبته فى الربح وطمعه فى الدولار الأمريكانى الرنة الإنجليزى اللغة ... إنى أرى فى شفالييه هذه الحسنة

— ولكنى أرى هذه سيئة لا حسنة . فالمثل هو الطيع النفس الذى يستطيع أن يتشكل بسهولة لا الجامد النفس الذى يستعصى عليه التلون

لم يمحص كالتاريخ الإسلامى ، وكذلك يلبسون على من لا يعلم تلبيساً محكماً لأنه حشد وجمع ، وتقرير بالجمع والاستقصاء الذى يزعمون . وسنتناول ذلك بعد قليل بعرض بعض الآراء التى ترجمها لنا الأستاذ بدوى فى كتابه لنحقق كل ذلك إلى نهايته ، حرصاً على أن نحصر الفساد فى أضيق محيط

العقاد

وأنا لا أحب أن أختم هذا الحديث بغير مثل أيضاً . فهذا الأستاذ « العقاد » ، وكلنا يعلم أنه قلما كان يتناول الأغراض الإسلامية بالتحرير والبحث ، ولكنه منذ العدد الهجرى للرسالة كتب مقالة عن عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم العسكرية ، ثم عن عبقريته السياسية ، فاستوفى القول فى ذلك وأشبعه ، ورد كثيراً من الشبه التى كان يلبس بها الأعاجم على الأغرار من شبابنا : وليس يستطيع مستشرق أن ينفذ فى فهم التاريخ العربى ، والاجتماع الإسلامى ، والفلسفة الإسلامية ، كما يستطيع كاتب قارىء مطلع كالأستاذ العقاد . ثم هو فوق ذلك أديب عربى يستطيع أن يجعل فطرته العربية الأدبية عوناً له على التغلغل فى أسرار تاريخية مطموسة ، لا يطيقها المستشرق لفقدانه مثل هذه الفطرة ؛ ثم لأن البيئة العلمية والاجتماعية التى نشأ فيها وتثقف على أساسها لا تطاوعه أو تلين معه، حتى يكون فى نظره إلى التاريخ العربى أو الفلسفة الإسلامية ، خراجاً ولاجاً على طبيعة العرب وطريقتهم فى تداول معانى حياتهم ، وحياة أفكارهم وفلسفتهم . ونحن نرجو ألا يخلى الأستاذ العقاد مباحثه من هذا النوع الجديد من الفكر فى تاريخ تنقذف عليه كل يوم جهالات كثيرة مفسدة ليس لها أصل ولا بها قوة

محمود محمد شاكر

— هذا حق . وإنى أعتقد أن موريس شفالييه إذا مَثَّلَ شخصية إنجليزية معينة فإنه سيكون فى تمثيله هـذا أقرب إلى سلامة « انتجنلز » منه وهو يمثل شخصيات غير محدودة لا ينطق الإنجليزية بلسانها بضرورة فنية ، وإنما لضرورة تجارية ألزمته إياها شركات السينما الأمريكية ... ولو لم تكن الأدوار التى يخرجها موريس شفالييه كلها تهريج ومرح ومجون وفكاهة لا تجب معها المؤاخذة على سلامة كيانها الفنى لفشل موريس شفالييه ولعاد إلى التمثيل بلغته الفرنسية كما عاد إميل جانتجز إلى التمثيل بلغته الألمانية على ما تكبد فى ذلك من خسارة مادية هائلة ، إذ كانت أمريكا تعتبره ممثل الدنيا الأول

— أو إلى هذا الحد يصعب على الإنسان أن يمثل بلغة غير لغته؟

— إذا كانت لغته متغلغلة فى نفسه قابضة على زمام روحه

— وكيف يكون هذا وكيف لا يكون ؟

— اللغة هى لسان فريق من الناس يقال لهم شعب، لأنهم تشعبوا من أصل البشرية إلى اتجاه إنسانى خاص يستدعى سلوكه مميزات نفسية خاصة . وهذه المميزات يظهر بعضها فى التفكير ، ويظهر بعضها فى الذوق ، ويظهر بعضها فى الأفعال والحركات ، ويظهر بعضها فى اللغة وفى طريقة إلقاء هذه اللغة . وكلما تأصلت هذه المميزات فى نفوس الشعب وضحت آثارها فى المظاهر التى ذكرناها ، وليس هذا الوضوح إلا دليلاً على تمكن هذه المظاهر من تلك النفوس ، وشـدة ارتباطها بها ، فإذا أكرم شعب من الشعوب أفراده تأصلت فى أفراده مظاهره حتى لتكون هى الطابع الذى يطبعهم ، وإنهم ليتمون هذا مدفوعين إليه بالذى يشعرون به من الاعتزاز بانتسابهم إلى أنفسهم ، وهم لا يشعرون بهذا إلا إذا كانوا على خير ، وإذا كانوا بهذا الخير راضين . وليس هناك شك فى أن موريس شفالييه يعتز بانتسابه إلى فرنسا ، كما أنه ليس هناك شك فى أن إميل جانتجز يعتز بانتسابه إلى ألمانيا، كما أنه ليس هناك شك فى أن شارلى شابلن يعتز بانتسابه إلى العبرية ، أما موريس فإنه رأى الناس لا يطلبون منه إلا أن يضحكهم وأن يمازحهم ، فلم يعبأ بأى لسان يتحدث إليهم ويضحكهم ، فهو ينطق أحياناً بالفرنسية وأحياناً بالإنجليزية ، ولو كفل له استديو مصر حاجته من المال لمثل بالعربية ولم يجد مانعاً من ذلك ما دام غرضه وغرض الناس منه هو العبث ، وأما شارلى شابلن فإنه يمثل من غير أن يتكلم لأنه لا يهرج ، وإن كان يضحك الناس على أنفسهم ، ولأنه يريد أن يحسه الناس جميعاً مجرداً من كل بلبلة مما فرق البشرية وشتتها ، وقد كان شارلى يستطيع أن يمثل بالإنجليزية وهو مولود عليها، ولكنه يشعر بالحق فيما بينه وبين نفسه أنها لغة طارئة على تكوينه غريبة على نفسه ذات المميزات العبرية الشرقية التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل ، وهذا الشعور مع رغبته فى الشيوع مع النفوس المختلفة هما اللذان يلزمانه التمثيل الصامت وإلا فقد كان يمثل بالإنجليزية وهى لغة جمهور السينما

— أو بالعبرية وهى لغته

— ولكن أهلها قليلون جداً وحرام أن يخصهم شارلى وحدهم بفنه مثلما خص إميل جانتجز أهله الألمان وحدهم بفنه بينما كان الواجب الإنسانى عليه أن يظل فى أمريكا يمثل صامتاً مثلما يفعل شارلى ، وقد كان ينجح كل النجاح ويوفق كل التوفيق فهو فى الممثلين آية . أذكر أنى رأيته مرة فى فيلم يبكى بضلوع ظهره بكاء أبكانى وأبكى كثيرين معى ، وليس كل ممثل بقادر على هذا

— فما الذى منعه ؟

— لست أدرى ، وإن كنت أظن أن إميل لو كان صاحب ثروة مدخرة لبقى فى أمريكا وفعل الذى يفعله شارلى ولما اضطره الفقر إلى أن يقف موقف الاختيار بين ما يريده الأمريكان من التمثيل الناطق ، وما يريده الألمان من النطق بالألمانية وحدها

— إذن فلو كان إميل غنياً لكان قد تخلص من ألمانيته ، فالألمانية إذن ليست متغلغلة فيه كما تدعى ، وما دام الأمر كذلك فقد كان يمكنه أن يظل فى أمريكا وأن يمثل بالإنجليزية

— لا. إن الألمانية متغلغلة فيه، فلا أحد يتكر أن الألمان من الشعوب الذين يعتزون بأنفسهم ، بل الذين يصل بهم اعتزازهم بأنفسهم إلى أن يصبح صلفاً وتكبراً مذمومين ، وكل الذى كان يستطيعه إميل مع هذه الألمانية المتمكنة فيه من ألوان الكفاح هو سترها بالصمت ، ولكنه لم يكن ليقوى على أن يسترها إذا نطق فأى لسان نطق ظهرت ألمانيته ، وظهر فيها صلفه وكبرياؤه وغروره ، والصلف والكبرياء والغرور من الصفات التى يراها البشر عامة شذوذاً وانحرافاً عن الفطرة الإنسانية السهلة السمحاء وليس يقبل فريق من الناس أن يكون الإنسان ذا صلف وكبرياء

وغرور إلا الألمان ، لأنهم كلهم هكذا أصحاب صلف وكبرياء وغرور، فجنسهم مملوء بهذه الصفات حتى إنهم لم يعودوا يرون فيها غرابة ولا شذوذاً ولا عيباً ؛ وقد يقبل الناس من غير الألمان أن يروا إميل جاننجز فى دور تمثيلى فيه صلف وغرور وكبرياء ، ولكنهم لن يقبلوه فى هذا الدور بهذه الصفات إلا إذا كانت هذه الصفات مما يستدعيه الدور ، كأن يكون دور قائد من المحاربين المغامرين المفتونين ، أو حاكم من الحكام المستبدين المغرورين ، أما إذا لم يستدع هذا الدور هذه الصفات وظهرت هذه الصفات فى لهجة إميل جاننجز وإلقائه للانجليزية أو الفرنسية فإن الناس سيضحكون عليه من غير شك لأنها صفات غريبة على الدور خارجة عن طبيعته ... أولا تضحكين أنت من المتكبر المغرور إذا لم يكن له جاه يبرر — ولو للعرف — كبرياءه وغروره ؟ ...

لهذا عجز إميل جاننجز عن التمثيل بالإنجليزية

— وهؤلاء الممثلون جميعاً الذين يمثلون فى هوليوود باللغة الإنجليزية وهم من شعوب مختلفة ولهم ألسنة مختلفة ، ألا يراعون هذا الذى يراعيه إميل جاننجز وشارلى شابلن وموريس شفالييه ؟

— أما شفالييه ، فهو لا يراعى شيئاً كما قلت لك ، واللذان يراعيان هما شارلى شابلن وإميل جاننجز ، فهما من عشاق الكمال الفنى ، وقد تركزت فى كل منهما خصائص قومه ، فهو فى فنه يمثل شعبه فى حياته ، فهذا شارلى ضاقت العبرية به ، فصمت وانتشر بصمته فى الأرض ، كما ضاقت الأرض المقدسة عن بنى إسرائيل ، فصمتوا عنها وانتشروا فى الأرض ، وهذا إميل جاننجز ضاقت به الألمانية ، فتشبث بها وانحصر فى حدود بلاده يجتر كبرياءه وصلفه وغروره كما ضاقت ألمانيا نفسها بأبنائها فلم يصمتوا عن صلفهم وكبريائهم وغرورهم ، وإنما انحصروا فى أرضهم يأكلون صراخاً وزعيقاً وصخباً وجلبة . ولو كانوا على شىء من الحكمة ، لنزلوا عن شىء من صفاتهم هذه ، ولكانوا كالإنجليز معتدين بأنفسهم ولا غرور ، أو كانوا كالمسلمين معتمدين على الله ساعين فى أرضه الواسعة بالحق والسلام والصبر فى البأساء ويوم البأس ... كم أريد أن أسمع صوتاً مسلماً : فى حديث أو غناء أو ترتيل أو تمثيل لحال أو موعظة تلقى ... ولكن أين نحن من هذا ... إنه لن يكون إلا إذا أسلم كاتب من الكتاب ، فاهتدى إلى موضوع مسلم ، فكتبه ، فمهد به إلى مخرج مسلم ، فسلمه إلى ممثلين مسلمين وملحنين مسلمين ومغنين مسلمين ، فعندئذ فقط نسمع الصوت المسلم ...

— وهذه الأصوات التى تسمعها ؟ ألا يشبهك منها ولا صوت جورج أبيض ؟ ...

— فيه رنة لذيذة كرنة الذهب ، ولكن فيه أيضاً عجمة غريبة تشربها فى فرنسا حيث تعلم التمثيل ، وإنه فى هذا يشبه الدكتور طه حسين بك فى إلقائه ، فهو ينطق الحروف العربية سليمة سلمة نقية مجودة ، ولكنه إلى هذا يموج صوته فى إلقائه تموجاً فرنسياً فيه التلطف ، وفيه القصد إلى التأثير ، وفيه التأنق فى الاسترسال والتأنق فى الوقف ، وهذا شأن مستشرق فرنسى تعلم العربية فأجادها ، وليس شأن عربى يتكلم . والدكتور طه معذور فى هذا فقد تعلم فى مصر ولكنه ترقى فى فرنسا وقد اختار أن يتفرنس ثم يستشرق لأنه رأى المستشرقين الفرنسيين أرقى علماً وأخصب حالاً من المصريين ومن العرب ، وأنا مؤمن بأن الدكتور طه لو كان قد احتك بمثل إنسانى حى أعلى منه ومحبب لديه من المسلمين أو المصريين أو العرب لكان قد مكن لغته العربية من نفسه على مثال تمكنها من نفس ذلك المثل الذى لم يره فلم يجد بداً من أن يبحث عنه بين المستشرقين ، كما تعلم الأستاذ جورج أبيض التمثيل على يد أستاذ فرنسى فطوّع له نفسه حتى تترجمت إلى نفس فرنسية تلقى العربية برنة فرنسية هى صدى لأسلوب الإحساس الفرنسى الذى درّبه عليه أستاذه ...

— وهل للاحساس أساليب ؟

— من غير شك. تصيب المسلم المصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ويقبل على الحياة مجاهداً وهو يقول: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، والمؤمنون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وتصيب الكافر المصيبة فيهلع لها ويتخبط من جزعه فى أرجائها فلا يخرج منها — إن خرج — إلا منهوكا زادته المحنة كفراً وبعداً عن الله واستغلاقاً على نفسه، له أسلوبه فى الحس وللمسلم أسلوبه، وأسلوب الكافر ظاهر فى لهجته وكلامه، فهو مضطرب حائر يلفظ الكلمة يكاد يخفيها أو يأكلها خشية أن تفضح ما فى نفسه ، فإذا أفصح انفضح اضطرابه وهلعه وجزعه ، وأسلوب المسلم ظاهر فى لهجته وكلامه، فهو مطمئن هادئ مستبشر واثق من رحمة ربه ... ولكل شعب من الشعوب أسلوب فى الحس ومختار من الإحساس يحبه